وأعظمه جرما وما ظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلاثمائة سن وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم رشيق وربما مر الفيل مع عظم بدنه خلف القاعدة فلا يشعر برجله ولا يحس بمروره لخفة همسه واحتمال بعض جسده لبعض وأهل الهند يزعمون أن أنياب الفيل وقرناه يخرجان مستبطنين حتى يخرقان وخرطوم أنفه ويده وبه يتناول الطعام إلى جوفه وبه يقاتل وبه يصيح وصياحه ليس في مقدار جرمه وقيل أن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطومه كما يغيب الجاموس جميع بدنه إلا منخريه ويقوم خرطومه مقام عنقه والخرق الذي في خرطومه لا ينفذ وإنما هو وعاء إذا ملأه من طعام أو ماء أولجه في فيه لأنه قصير العنق لا ينال ماء ولا مرعى وأهل الهند تجعله في القتال وهو أيضا يقاتل مع جنسه فمن غلب دخلوا تحت أمره وقيل جعل ا في طبع الفيل الهرب من السنور .

حكي عن هارون مولى الأزد أنه خبأ معه هرا ومضى بسيف إلى الفيل فلما دنا منه رمى بالهر في جهه فأدبر هاربا وكبر المسلمون وظنوا أنه هرب منه قال أبو الشمقمق .

(يا قوم إني رأيت الفيل بعدكم ... تبارك ا لي في رؤية الفيل) .

(رأيت بيتا له شيء يحركه ... فكدت أفعل شيئا في السراويل) وقيل إذا اغتم الفيل لم يكن لسواسه هم إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه ومن عجيب أمره أن سوطه الذي به يحث ويضرب محجن حديد أحد طرفيه في جبهته والآخر في يد راكبه فإذا أراد شيئا غمزه به في لحمه وأول شيء يؤدبون به الفيل يعلمونه السجود للملك .

قيل خرج كسرى أبرويز لبعض الأعياد وقد صفوا له ألف فيل وأحدق به ثلاثون ألف فارس فلما رأته الفيلة سجدت له فما رفعت رؤوسها حتى جذبت بالمحاجن وراضتها الفيالون وتزعم أهل الهند أن